

حالة حفظ المواقع الاثرية وعلاقة ذلك بكتابة التاريخ - اثار تيسمسيلت انموذجا -

أ.ليب الحاج

جامعة ابن خلدون تيارت

تسعى الامم والشعوب لإثبات وجودها حاضرا ومستقبلا، من خلال مخلفات الحضارات السابقة في ظل التطورات الحاصلة في مجال التكنولوجيا، وكذا خطر العولمة الذي يعتبر امرا حتميا يجب مواجهته دون اغفال وإهمال إيجابياته كل هذا يبقى في اطار كتابة التاريخ بحقائقه ومعطياته بموضوعية تخدم البحث في اصل الهوية والانتماء للوطن والحضارة، بعيدا عن اشكال الذاتية وتكليف الحقائق لخدمة مصالح شخصية ضيقة على حساب تاريخ شعب او امة.

لعل كتابة هذا التاريخ بفترة وأحداثه تقتزن اقترانا شديدا بشواهد الماضي سواء قرب من حيث الزمن او بعد، من منطلق انها الاصل في استقراء الاحداث وكذا التعريف بالآليات التي من شأنها دراسة هذه المخلفات والبقايا التي يصطلح عليها علميا بالآثار ونحن نتحدث عن الآثار لابد من التركيز على ان الشواهد والبقايا الاثرية لها دور اكثر من مهم في كتابة التاريخ وتدوين الحقائق، وهو ما بادرت اليه ادارة معهد الآثار بجامعة الجزائر 02 من خلال تنظيمها لملتقى علمي اكايمي تحت شعار "دور الآثار في كتابة التاريخ الوطني"، حيث كان لي ترسيم مشاركتي بمداخلة اردت ان ابرز من خلالها دور المواقع الاثرية - خاصة ما يتعلق بحالة حفظ ما تحتويه من بقايا وهياكل معمارية - في كتابة التاريخ والنموذج المدروس كان من ولاية تيسمسيلت، ومن خلال هذا العرض سوف يتم التركيز على عينات لمواقع اثرية كان لها دور كبير في كتابة تاريخ المنطقة إلا ان حالة حفظها السيئة حالت دون مواصلة ذلك، ليتم البدء بإعطاء لمحة تاريخية او بالأحرى تاريخ الابحاث التي اجريت على الموقع وحتى الحفريات التي كانت نتائجها في شكل تقارير علمية منشورة في مختلف المجلات خاصة ابان الحقبة الاستعمارية، ضف الى ذلك طبيعة هذه الآثار وكذا قراءتها التاريخية في اشارة منا الى ان المنطقة ضاربة في مراحل ما قبل التاريخ من خلال محطات الفن الصخري والنقوش الجدارية، ثم المرحلة القديمة التي نلاحظ انها تتوفر على قسط كبير من المواقع الاثرية، وهذا بحكم كثرة الاحداث التي تقتزن دراستها بأشهر السلاسل الجبلية -الونشريس- من منطلق ان الاستيطان القديم بالمنطقة تركز بشكل كبير في هذه الجبال من الجهة الشمالية ليمتد الى سهول السرسو جنوبا، مخلفا بذلك بقايا متنوعة من حيث تنوع الهياكل المعمارية، اللقى الاثرية المنقولة منها وغير المنقولة.

تيسمسيلت لفظة بربرية مكونة من قسمين، تيسم تعني غروب وسيلت تعني الشمس، تقع ولاية تيسمسيلت في الوسط الغربي للجزائر، تبعد عن العاصمة بحوالي 220 كلم، وهي من بين الولايات التي تنتمي الى مناطق الهضاب العليا من الوطن بمساحة تقدر بـ 315137 كلم²، تحدها من الشمال ولاية الشلف وعين الدفلى، من الشرق ولاية المدية، من الغرب ولاية غيليزان ومن الجنوب ولاية تيارت والجلفة¹، تتميز طبوغرافيتها بطابعها الجبلي، من خلال الكتل والسلاسل الجبلية إذ تحتل حوالي 65 % من المساحة الكلية، تتمثل في جبال الونشريس بارتفاع 1987م، وجبل المداد بارتفاع 1756 كلم، اضافة الى حلقة سهل السرسو الذي يعطي المنطقة طابعا فلاحيا بمساحة تقدر بـ 320000 هكتار²، انبثقت عن التقسيم الإداري لسنة 1984، تضم 8 دوائر و 22 بلدية³.

تكاد هذه المساحة لا تخلو من نقاط ومواقع اثرية من مختلف الحقب والمراحل التاريخية وهذا دليل على ان المنطقة عرفت احداثا منذ ما قبل التاريخ ثم المرحلة القديمة الى غاية مرحلة المقاومة الوطنية في عهد الامير عبد القادر، اولى المواقع التي سوف نتعرض اليها بالدراسة عبارة عن محطة من محطات الفن الصخري "عين الصفا" المتواجدة ببلدية تيسمسيلت.

يحتوي الموقع الأثري عين الصفا على نقطتين أثريتين تبعدان عن بعضهما البعض بحوالي 200 م، وعلى اعتبار إمكانية توسيع مجال الرؤية الذي لا تقل مسافته عن (200) متر لتفادي إتلاف المنظورات المعلمية المشمولة على الخصوص في تلك المنطقة مما يوفر الحماية للمعلم التاريخي وارباطه التي لا ينفصل عنه⁴.

النقطة الأثرية الأولى:

دلت حفرة 1995 من طرف البعثة الأكاديمية لمعهد الآثار على وجود بقايا وشواهد أثرية لفترة ما قبل التاريخ تمثلت في جماجم وهياكل عظمية بداخل صناديق حجرية (الشكل 01) وقبور جنائزية وهي موجودة على مستوى مخبر المعهد لتحليلها وتحديد فترتها الزمنية.

¹ Office National de la Recherche Géologique et Minière « Carte de substances utiles non métalliques de l'Algérie » Wilaya de Tissemsilt 1998.

² BAGEJA M. Au pays de moisson, Edition fantana, Alger 1948, P 118.

³ بلقاسمي محمد السعيد. ولاية تيسمسيلت بين العقبة والطموح، مجلة ولايات في تطور، وأج، الجزائر 1989، ص248.

⁴ للإطلاع أكثر، راجع :

الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، العدد 44، الصادر بتاريخ 17 / 06 / 1998، القانون 04.98 المؤرخ في 15 / 06 / 1998، المادة 17 الفقرة الأخيرة.



الصورتان 1 و 2: الجماجم والعظام الأدمية المكتشفة خلال الحفريات (1995)

(أرشيف مديرية الثقافة لولاية تيسمسيلت، مصلحة التراث الثقافي)



الشكل 01: الصندوق الحجري بعد الحفريات

عن: Bouyahiaoui A, Derradji A, Meddig M. « Prospection Archéologique à Tissemsilt »

Revue de Recherches, Université d'Alger, N°05, Alger 1998, P 19 .

النقطة الأثرية الثانية :

عبارة عن مخبأ صخري من الحجر الرملي الأصفر، مفتوح من الغرب على امتداد شمال جنوب، تبلغ المساحة المنقوشة به 15,80 م وعرضها 3 م يوصل إليه طريق ثانوي يمتد على طول حوالي 400 م، يحتوي على نقوش جدارية وزخارف كتابية، آدمية وحيوانية بأشكال وأنواع مختلفة.



الصورة 3: منظر عام للمخبأ الصخري

تشكل الزخرفة الآدمية نسبة كبيرة من مساحة المخبأ الصخري، حيث استطعنا أن نميز حوالي 20 شكلاً آدمياً تختلف باختلاف الشكل، المقاس والجنس وحتى أسلوب التخطيط أو النقش والملاحظ على هذه الأشكال أخذها وضعيات مختلفة (الحركة والسكون) وقد استعمل في ذلك أشكال هندسية على اعتبار وجود الرأس مثلاً على شكل دائرة، والبطن أخذ مربع وأحياناً شكل معين أما الأرجل فأخذت أشكال خطوط مستقيمة في الاتجاه الأسفل.



الصورة 4: التشكيلات الفنية للزخرفة الآدمية

بالنسبة للزخرفة الحيوانية فتتصدر في الجزء السفلي الجنوبي للمخبأ الصخري وبالضبط في أعلى الكتابة التيفيناغية ذات التشكيل العمودي، بأسلوب تخطيطي بارز، خاصة على مستوى انجاز النعامات.



الصورة 5: نماذج للزخرفة الحيوانية

بالنسبة للزخارف الكتابية موجودة على نوعين:

كتابة ليبية تغطي الجزء الأكبر من الواجهة الشرقية للمخبأ بشكل عمودي والعدد الأكبر من حروفها غير مقروءة، أما كتابة التيفيناغ فهي مشكلة من ثلاث سطور عمودية متواجدة في أسفل الزخرفة الحيوانية (النعامات).



الصورة 6: الكتابة الليبية و التيفيناغ

تعتبر الدراسة التي قام بها ⁵DE BAYLE DES HERMENS الأكثر تعمقا خاصة على مستوى تحليل محتويات المخبأ الصخري البالغة الأهمية لدارسي علم آثار ما قبل التاريخ على اعتبار ندرة إن لم

⁵ De Bayle des hermens. « Station de gravures rupestres d'Ain Sfa, région de Vialar », Libya d'Anthropologie / préhistoire. N° IV, 1956, PP 135-146.

نقل انعدام مثل هذا النوع من الاكتشافات الخاصة بالنقوش الجدارية والزخارف الكتابية بالمنطقة، وفيما يلي أهم ما قام به الباحث على مستوى الموقع:

* البدء بتحديد الموقع الجغرافي ثم استعراض تمييز النقوش الصخرية وتقسيمها حسب الأنماط إلى:

* الأشكال الحيوانية مع تحديد مقاساتها والطرق الفنية المستعملة في إنجازها،

* الأشكال الآدمية بأسلوب التخطيط والتتقيط،

* تحديد النقوش والكتابات الليبية والتيفيناغية (انظر ملحق الكتابات الأثرية رقم 10، 11 و 12) إضافة إلى أساليب التلوين بواسطة المغرى الحمراء والتخطيط خاصة على مستوى انجاز الزخرفة الآدمية، وفي إشارته إلى موقع عين الصفا، لم يتطرق WAILLE⁶ إلى ذكر وجود آثار قنطرة ما قبل التاريخ وتحديد المخبأ الصخري، حيث أشار إلى وجود برج مراقبة للفترة الرومانية وبالقرب منه وجود جزء من علامة ميلية مؤرخة بـ 223 م، في وقت يؤكد GSELL⁷ صحة ما ذكره WAILLE بوجود برج مراقبة عسكرية محفور في الصخر خاصة وأن المنطقة تشتهر بشريط صخري يمتد على أكثر من 4 كلم، وهو ما ينسب حسب الإحداثيات الجغرافية للخريطة الطبوغرافية الحالية للموقع الأثري كاف أم العلو.

أما التقرير العلمي للبعثة الأكاديمية⁸ فيبرز نقطتين أثريتين، الأولى تتعلق بالمخبأ الصخري وما يحتويه من نقوش صخرية وزخارف كتابية، آدمية وحيوانية بشكل تفصيلي وتحليلي خاصة فيما يتعلق بإعادة رسم الأشكال بهدف توضيح الطرق والأساليب التي ركز عليها إنسان ما قبل التاريخ من خلال الفن الصخري مع مراعاة المقاييس العلمية والمنهجية المتبعة في تحليل النتائج والقراءات الأثرية، فيما الثانية تقع على بعد 200 م في اتجاه الجنوب، أجريت عليها حفرة من طرف نفس البعثة أسفرت عن اكتشاف صندوق جنائزي حجري بداخله هياكل عظمية آدمية.

⁶ WAILLE, V. Une reconnaissance Archéologique entre Theniet el Had et Tiaret. Bulletin de Correspondance Africaine, 1884, P 454, N° 41.

⁷ GSELL, S. Atlas Archéologique de l'Algérie, Feuille 23, N° 29.

⁸ BOUYAHIAOUI A, DERRADJI A, MEDDIG M. « Prospection Archéologique à Tissemisilt » Revue de Recherches, Université d'Alger, N° 05, Alger 1998, PP 13-27.

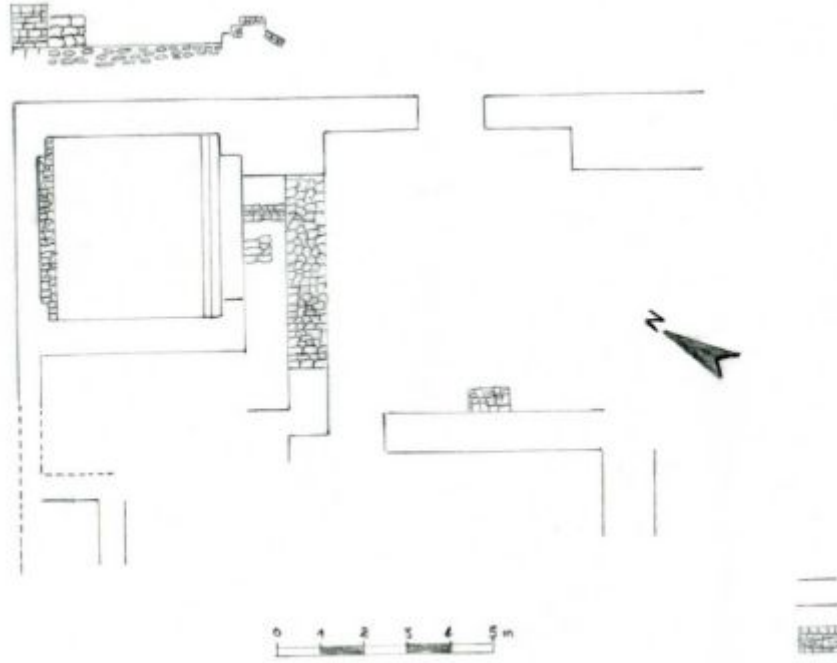


الصورة 7: آثار التشكيلات البشرية بطريقة الخدش

على الرغم من اعتبار الموقع أهم شاهد على حضارة إنسان ما قبل التاريخ بالمنطقة واستفادته من مشروع حمائي حيث يبقى تحت المراقبة المستمرة من طرف الإدارة المكلفة بتسيير شؤون التراث الأثري ومراقبته، لكن ذلك يبقى غير كاف في ظل الحركة البشرية وما ينتج عنها تصرفات غير مسؤولة للأشخاص، ما نجم عنه آثار الخدش والكتابة من طرف الأطفال على واجهة المخبأ وخاصة في الجهة الشمالية مما قد يؤدي مستقبلا الى الإتلاف الكلي للنقوش والزخارف الجدارية وتغيير مدلولها الحضاري، وبالتالي اهمال ما كتب وما سوف يكتب في اطار تحيين بنك المعطيات التاريخية المتعلقة بتاريخ المنطقة.

الموقع الآخر يكاد لا يقل اهمية عن سابقه،

معسكر عين تكرية: تشير جل دراسات الباحثين الفرنسيين خلال الفترة الاستعمارية الى اظهار اثار وعماره الموقع وما تحصلنا عليه من خلال المصادر التاريخية المتعلقة بالمنطقة هو ذلك **المخطط** الذي يبين الاسوار والمعالم المدنية والدينية الى جانب العمارة الدفاعية، حيث تم تصنيفه من خلال البقايا الاثرية على انه عبارة عن احدى نقاط الارتكاز الاساسية ذات الطابع الدفاعي لخط الليمس الثاني الذي انشأ على طول المناطق الداخلية والهضاب العليا بهدف تقوية الخط الاول، اضافة الى صد هجمات القبائل المورية التي كانت تتمركز بجبال الونشريس وسهول السرسو، وبالتالي اعتباره اهم شاهد على الاستيطان الروماني بالمنطقة.



المخطط 01: - الهياكل المعمارية لموقع عين تكرية

عن : CADENAT. P 1956

تشير بدايات الأبحاث التي أجريت على الموقع والتي كانت من طرف VAYSSETTE⁹ أن أولى البقايا التي تصادفنا على محور الطريق الرابط بين ثنية الحد وتيارت على بعد 28 كلم هي آثار رومانية بمدينة عين تكرية المتواجدة على هضبة مفتوحة بها مجموعة من الحجارة الضخمة مشكلة لجدران بنايات قديمة، إضافة الى وجود برج لأحد القادة الأتراك -الباشا أغا- يرتفع طبيعيا على مستوى الآثار الرومانية، مع إحصاء عدد من الشقوق والقطع الفخارية والنقدية دون الإشارة الى وجود كتابات وتسجيلات لاتينية، أما BOURGUIGNAT¹⁰ حاول إثبات وجود دهليز أو نفق في الجهة الشمالية لعين تكرية بالقرب من المكان المسمى كاف يغود KEF IGHOUD (يطلق عليه حاليا واد الغول ويبعد عن مدينة ثنية الحد بـ 12 كلم باتجاه الجنوب الغربي)،

وفي سنة 1883، قام CAVAUT¹¹ بدراسة تبين من خلالها وجود بناء حديث عبارة عن مزرعة لأحد المعمرين الفرنسيين استعملت فيه الحجارة المنحوتة النادرة الوجود والتي كانت مشكلة في الأصل لمدينة

⁹ VAYSSETTE. « De Theniet el Had à Tiaret » *Revue Africaine*, O.P.U, N° VI, 1862, PP 25-31.

¹⁰ BOURGUIGNAT, M.J.R. *Les monuments symboliques de l'Algérie*, Paris 1868, PP 20-21.

¹¹ CAVAUT, P. « Note sur les ruines antique d'Ain Toukria » *Revue Africaine*, N° 27, O.P.U, 1883, PP 231-240.

أو معسكر روماني ويتضح ذلك من خلال وجود بعض الأعمدة الحجرية وجدارين عرضهما يتراوح من 1,50 الى 2 م، كما أشار الى وجود مجموعة من القبور المحفورة في الصخرة بأشكال مستطيلة ومغلقة بلوحات موضوعة بالعرض والطول، وبعض الأنصاب التي وجدت في غير أماكنها، ونظرا لكثرة الأودية والمجاري المائية بالمنطقة حاول نفس الباحث ربط فرضية وجود حمامات بالمنطقة وهو ما أكده بعد العثور على بناء من الحجارة المرصعة والبلاطات الأرضية لمنع تسرب المياه الى جانب وجود الآجر المربع لبناء الجدران الخاصة بالغرف لضمان حرارة قوية بقاعات الحمام، ليشير في الأخير الى كثرة القطع النقدية والتسجيلات اللاتينية بالموقع على اختلاف أنواعها ووظائفها في تلك الفترة،

من جانب آخر، يصف WAILLE¹² آثار مدينة عين تكرية وأصل تسميتها من خلال الكتابات واللوحات الأثرية اللاتينية بما أنها تشمل أحداث معسكر روماني والممارسات الدينية والجنائزية في شكل طقوس وأدعية موجهة للآلهة والأباطرة، كما يشير الى وجود قطع نقدية بأسماء **اوغسطس**، **تراجان**، **ديوقليسيان**، **غورديان 3**، وفي الأخير يؤكد ملاحظته لحمامات بالمدينة ونظام توصيلها بالمياه،

في سنة 1884 يتطرق MAC-CARTHY¹³ الى عرض قصته مع الحجرة المكتوبة حيث وخلال مدة تواجدته في مهمة استكشاف المواقع الأثرية بمقاطعة تيارت، تحصل وبمساعدة سكان المنطقة على لوحة حجرية تحوي كتابات أثرية باسم كوليمناطة والتي أدلت الباحثين بشكل تفصيلي على تسمية المدينة بهذا الاسم الذي أطلق عليها في الفترة الرومانية، وفي الأخير يرى انه بإمكان هذا الاكتشاف الإدلاء بحقائق عظيمة تخص تاريخ شمال إفريقيا القديم عامة والجزائر خاصة.

فيما يرى CAGNAT¹⁴ أن عين تكرية هي إحدى النقاط المشكلة للخط الدفاعي الثاني "الليمس" باعتبارها إحدى أهم مرتكزاته على محور الطريق الرابط بين منطقة بوغار على بعد عشرات الكيلومترات مرورا بخربة أولاد هلال التي بها احد أبراج المراقبة وبالقرب نجد معسكر عين تكرية وصولا الى مقاطعة تيارت من الجنوب الغربي،

ضف الى ذلك وصف آثار المدينة من طرف CAT¹⁵ بعد تحليل وقراءة محتوى الكتابات الأثرية التي تم العثور عليها على بعد 15 ميل (22 كلم)، التي دلت على وجود مقبرة متواجدة على هضبة كبيرة الى جانب المركز الفلاحي الوحيد على مستوى هذه النقطة الأثرية.

¹² WAILLE, V. Op Cit. PP 456-459

¹³ MAC-CARTHY, O. « Columnata, histoire d'une pierre écrite » Revue Africaine, N° 28, O.P.U, (23 Juin 1884), PP 392-399.

¹⁴ CAGNAT, R. L'Armée romaine et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, 1892, P 653.

¹⁵ CAT, E. Essai sur la province romaine de la maurétanie césarienne, Paris 1891, P 205.

أما الدراسات الحديثة وخاصة تلك التي أجريت سنة 1956 في شكل حفرة ولم تكتمل بسبب اشتداد قتل حرب التحرير، تعرضت الى اكتشاف المدينة القديمة لعين تكرية من طرف فرقة البحث الأثري الفرنسية بقيادة ¹⁶ CADENAT التي أشارت الى موقعها الجغرافي وتحديد ملحقاتها بما في ذلك المسبح المائي والأسوار الخاصة بالمباني والمواد المستعملة في ذلك (انظر المخطط رقم 01) وهذا اعتمادا على الأطلس الأثري لـ GSELL ¹⁷ الذي يشير الى مدينة عين تكرية باسم بورباكي،

في سنة 1953 ومن خلال دراسة قام بها LESCHI ¹⁸ حول المدينة، ركز من خلالها على احتواء الكتابات الأثرية وخاصة الجنائزية وتحليلها بطريقة تمكن من خلالها إبراز جوانب دينية خاصة في الفترة المسيحية ومن ذلك الأدعية الموجهة للآلهة وتقديم القرابين داخل المذابح التي عثر بداخل أحدها على تيجان ضخمة،

أما ¹⁹ SALAMA قام وبغرض تحديد شبكة الطرقات بالمنطقة بعد العثور على العلامة الميلية والتي بينت المسافة بين فيالار وعين تكرية بـ 15 ميل، كما أكد على أن المدينة بها منشآت عسكرية قديمة . وفي دراسة حديثة لـ MODOT ²⁰ حول المنطقة وما جاورها أكد وجود مدينة تؤرخ لحضارة إنسانية قديمة كانت تسمى عين تكرية والأقدم من ذلك كوليمناطة.

وأخيرا، قامت فرقة بحث أكاديمية ²¹ بعملية مسح أثري للمنطقة أشارت من خلاله اعتبار عين تكرية أهم نقطة أثرية وشاهد على أول استيطان روماني للمنطقة، وهذا بعد تحديد مقبرة قديمة وأجزاء من الفخار السيجلي والهياكل المعمارية والتزيينية كالتيجان والأعمدة مع إعادة تصور أشكالها السابقة بعد رسمها، بما أنها كانت مشكلة للمدينة القديمة وملحقاتها.

لكن ما نلاحظه اليوم هو اندثار تلك البقايا الأثرية خاصة الحجارة التي اعيد استعمالها في بناء منشآت المدينة الحالية، ولعل حجارة الانصاب و النقيشات اللاتينية خير دليل على كلامنا هذا . وهذا ما لا يخدم كتابة او حتى مواصلة العمل من اجل الكشف عن حقائق تاريخية للمنطقة.

¹⁶ CADENAT, P. « Fouilles à Columnata 1956-1957 » Libyca Archéologie / Epigraphie, N° VI, 1^{er} semestre, 1958, PP 89-99.

¹⁷ GSELL, S. Op Cit. N° 27.

¹⁸ LESCHI, L. « Un Autel Votif de Bourbaki (Département d'Alger) » Libyca Archéologie / Epigraphie, N° I, 1953, PP 87-94.

¹⁹ SALAMA, P. Les voies romaines de l'Afrique du nord, 1951, P 242.

²⁰ MODOT, J. Les guides bleus, Algérie, Hachette, Paris.

²¹ BOUYAHIAOUI A, DERRADJI A, MEDDIG M. Op Cit. PP 28-29.



الصورة 8: إعادة استعمال حجارة نقيشة اللاتينية **الصورة 9:** إعادة استعمال حجارة نصب نذري

يبقى موقع تازا برج الامير عبد القادر يمثل شاهدا تاريخيا من خلال بقاياها الاثرية والمعمارية على مرور حضارتين هامتين، ما من شأنه اثراء الخزانة الثقافية والتاريخية لمنطقة تيسمسيلت، للإشارة فالموقع لا يزال يشهد سنويا اشغال تنقيب اكاديمي بقيادة الباحث بويحيواوي، على هذا الاساس صنف قانونا على انه محمية اثرية، الى حين الانتهاء من اشغال الحفريات اين يتم تحديد نوع الموقع،



الصورة 10: منظر عام للموقع قبل الحفريات

عن الباحث : بويحيواوي

تعود بداية العمل في هذا الموقع سنة 2001 اين اتخذت السلطات المحلية لولاية تيسمسيلت قرارا بترحيل السكان الى منازل لائقة ومباشرة اشغال البحث والتنقيب بازالة الردم وبقايا المساكن الفوضوية.



الصورة 11: منظر عام للموقع خلال الحفريات

عن الباحث: بويحيوي

وفي هذا المضمون استطاع فريق البحث، الكشف في بداية الحفريات عن بعض المعالم والهيكل المكونة للقلعة متمثلة في بعض الأسوار الرئيسية، إضافة الى كتلة من الأسوار المتداخلة والمتصلة مع بعضها البعض في الجهة الشمالية كانت مشكلة في مجملها للغرف والمنشآت المعمارية على غرار مصانع البارود والأسلحة ومطاحن الحبوب الى جانب المباني العامة والخاصة.



الصورتان 11 و 12: منظر عام للهيكل المعمارية المكتشفة خلال الحفريات

عن الباحث: بويحيوي

ومع مرور السنوات في البحث والتنقيب تم التوصل الى مستوى اخر، يتعلق الامر بالمستوى الروماني وهذا من خلال بروز هياكل معمارية متمثلة في اسوار بتقنيات بناء مختلفة عن مستوى فترة الامير عبد القادر.



الصورة 13: تداخل الهياكل المعمارية الرومانية مع فترة الأمير

عن الباحث: بويحيوي

إن ما أسفرت عنه حفريات تازا الأثرية على امتداد عشرية كاملة من الأبحاث الميدانية على قلعة بكامل معالمها من نتائج علمية في غاية الأهمية، خاصة لكتاب تاريخ وطننا وسير عظماء تاريخنا القريب والبعيد، وهو ما يؤكد وبشهادة من هم على دراية وتجربة في ميدان البحث الأثري، وخاصة أولئك الذين القوا العنان على انفسهم بنية البحث والتنقيب على الرغم من قلة الأبحاث العلمية والتاريخية لهذا الموقع إيماننا بفرضية أن الآثار والشواهد المادية هي السبيل الوحيد والأمثل لكتابة التاريخ وعرض ماضي من سبقونا على أحسن الصور والأشكال بعيدا عن الذاتية وتكييف الوقائع والأحداث.

يعتبر BERBRUGGER²² أول من قام بدراسة حول منطقة تازا سنة 1843، أسفرت عن اكتشاف أربعة مواقع أثرية قديمة " أغبال، سينالفن، عين الرباط وعين تازا ".

في سنة 1861، أعطى VAYSSETTE²³ وصف عام لموقع يعود للفترة الإسلامية، يتمثل في بقايا مدينة أسسها الأمير جعفر بن عبد الله (700هـ / 1302م) من خلال الكتابة المنقوشة على لوحة حجرية مكتوب عليها اسم مؤسس المدينة وتاريخ ذلك.

²² BERBRUGGER, A. « Miliana », Revue Africaine, N° VIII, Paris 1864, P 423.

²³ VAYSSETTE. Op Cit. P 234.

بعد ذلك، وتحديدًا في سنة 1889 حيث يذكر PATRONI²⁴ اكتشاف يخص آثار مدينة تحمل اسم تازا متمثلة في تحصينات عثمانية بجبل الشاون من تأسيس الشيخ " الحاجي شاوي" مع الإشارة الى وجود لوحة حجرية نقش عليها باللغة العربية آيات من القرآن الكريم،

كما قامت وزارة الثقافة في سنة 1981 بإرسال بعثة أثرية لإجراء مسح أثري حول المنطقة شمل على وجه الخصوص تحديد قلعة الأمير عبد القادر ومجموعة قبور رومانية²⁵.

لتشهد المنطقة في سنة 1989 عمليات بحث استطلاعية من طرف فرقة بحث أكاديمية تابعة لمعهد الآثار جامعة الجزائر، أسفرت عن اكتشاف مجموعة من الأدوات الحجرية للإنسان الأيبيري ومغارة كبيرة بها صور جدارية تعود لفترة ما قبل التاريخ وهذا بموقع عين العنصر، ليتم بعدها بسنوات بإجراء دراسة جد معمقة شملت أهم المواقع وخاصة لفترة ما قبل التاريخ ما أسفر وكما أسلفنا الذكر على نتائج جد مفيدة من باب اعتبارها أولى الدراسات في الوقت الحالي²⁶.

وبعد فتح حفرة بالموقع سنة 2001 الى يومنا هذا، والتي حققت نتائج هامة من خلال الكشف عن الهياكل المعمارية لحصن تازا خلال فترة الأمير عبد القادر (نظام توزيع وصرف المياه، الأسوار، أرضيات الغرف والجدران) إضافة الى الفخار والخزف المكتشف بالموقع خاصة في المواسم الثلاثة الأخيرة من الحفريات، أين تركز العمل على المستوى الروماني وهو ما أسفر عن اكتشاف مجموعة قطع فخارية وخزفية من نوع السيجيلي الى جانب العملات البرونزية الرومانية، وعدد من التحف واللقى الأثرية على اختلاف الأنواع والأشكال والأحجام²⁷، وهذا كله من شأنه المساهمة في إعطاء القراءة الصحيحة والسليمة لتاريخ الموقع وهو ما يؤدي بشكل حتمي الى الاستغناء عن التأريخ النسبي للأحداث التاريخية والتسلسل الطبقي للحضارات، إيمانًا من الجميع بنظرية إحياء تاريخ الشعوب وازدهار الحضارات لا يتضح ولا يكتمل إلا بالكشف عن كل ما يخبئه باطن الأرض من شواهد أثرية ودلائل تراثية مختلفة.

بعدما تبين أن لموقع تازا أهمية تاريخية، حضارية وأثرية، ونظرًا لكون الحفريات لا تزال متواصلة ومن ذلك النتائج العلمية التي زادت من تأكيد نظرية وجوب المحافظة التامة على آثار الموقع خاصة وأنه مصنف على أساس محمية أثرية في انتظار الانتهاء من أشغال الحفريات وتحديد بدقة التسمية (معلم أو

²⁴ PATRONI, F. L'Emir Abdelkader, Règlements militaires, Imprimerie Fontana et compagne, Alger 1889, P 67.

²⁵ خلاصي على. مهمة الى ولاية تيارت، دائرة ثنية الحد، بلدية برج الأمير عبد القادر، وزارة الإعلام والثقافة، من 28 إلى 30 مارس 1981، ص 02.

²⁶ BOUYAHIAOUI A, DERRADJI A, MEDDIG M. Op Cit. PP 13-33.

²⁷ بويحيوي عز الدين. التقارير العلمية لحفريات تازا برج الأمير عبد القادر لكل المواسم من 2001 إلى 2009، أرشيف مديرية الثقافة لولاية تيسمسيلت (مصلحة التراث الثقافي).

موقع) كما أن الأدوات واللقى الأثرية التي تم اكتشافها والتي تعود لحقب تاريخية مختلفة مما يؤكد العمق التاريخي والتسلسل الطبقي لاحتلال الموقع منذ القديم... فحالة كل المكتشفات وخاصة غير المنقولة منها معرضة لعوامل التلف الطبيعية كالأمطار وانجراف التربة وعوامل التعرية، وكذا التدخلات الفوضوية إذا لم تتخذ الإجراءات الخاصة بتقوية حراسة الموقع²⁸.

في نهاية هذا العرض، يبقى التأكيد على نقطتين هامتين وهذا بناء على شعار دور الآثار في كتابة التاريخ الوطني:

- المساهمة وبشكل فعال في إثراء الحقيبة التراثية خاصة ما يتعلق بمواصلة البحث والتنقيب عن الآثار وكذا استرجاع الكم الهائل من اللقى الأثرية المهربة.
- توفير الحماية اللازمة لمواقعنا ومباشرة عمليات تصنيفها محليا ووطنيا، ما من شأنه استفادتها من مشاريع التثمين، الحفظ والترميم.
- على الأساس، يمكن الحديث على أن الحقائق العلمية لا يمكن وبأي حال من الأحوال أن تغيب أو تحوّر، ويصبح دور الآثار أساسيا في كتابة تاريخنا وحفظ ذاكرتنا الوطنية.

²⁸ بويحيوي عز الدين. حالة حفظ الممتلك الثقافي ، ملف تصنيف موقع تازا- برج الأمير عبد القادر ، أرشيف مديرية الثقافة لولاية تيسمسيلت (مصلحة التراث الثقافي)، ديسمبر 2008.